دراسات الأدب المعاصر، السنة الخامسة، صيف ۱۳۹۲، العدد الثامن عشر، صص ۸۱- ۹۵

دراسة فی أصداء النيل

حسين محمديان *

تاريخ الوصول: ۹۱/۱۱/۱۸
تاريخ القبول: ۹۲/۱/۱۵

الملخص

ما زالت العرب تذكر النيل وما يزال فی أشعارهم قديماً وحديثاً فلا يكاد يخلو منه ديوان شعر من دواوين شعراء مصر والسودان. وفتن عقول الشعراء فنشدوا فيه روائع شعرية، تتسم برقة الديباجة وسلامة الأسلوب وجزالة اللفظ وشرف المعنى.فمنهم الشعراء من أحبوا النيل حبا جماً كالشاعر *عبدالله الطيب المجذوب* الذی سمی ديوانه «أصداء النيل». النيل عنده يخرج من دائرة الحس والمادة إلى دائرة المعنى، فهو رمز لقوة الإرادة وإنّ مجد النيل هو مجد الوطن، ومن ثم التغنی بحب النيل هو غناء بحب النيل، إذ يجد الشاعر عنده الطمأنينة والسكينة بسبب علاقة حميمة تربط بينهما منذ الطفولة الباكرة، وإنّ الصلة بينهما هی صلة «الحب الفطری» ومن ثَمَّ كان الحنين إلى النيل حنيناً إلى الإنسان والزمان والمكان، فتعلقت روحه بالنيل وأهله، فلا يكاد يستطيع مفارقته. لذلک يتحدث عن النيل فی ديوانه مرّات؛ بل وسمی تسعاً من قصائده ومقطوعاته الشعرية بأسماء النيل.

الكلمات الدليلية: النيل، أصداء النيل، عبدالله الطيب، الحنين، حب النيل.

پرتال جامع علوم انسانی

* طالب الدكتوراه بجامعة الحكيم السبزواری.

المقدمة

يهدف هذا البحث إلى إعطاء صورة واضحة وخلفية موجزة عن حقيقة النيل وطبيعته وأثره فی حياة الشاعر *عبدالله الطيب*، وتأثره به ومكانته فی نفسه عبر «أصداء النيل» فقد كان النيل وما يزال ملهم الأدباء والفنانين، ومبعث الشعر والأدب ومبرز معانی العزة والكرامة والشوق والحنين ومبادئ الحرية ورفض الخضوع على مر العصور والأزمان. فالنيل هوالحب الأزلی، وهو الماضی، والحاضر، والمستقبل، والرجاء، والوفاء، والشموخ والعزة، والوقار، والعظمة عند كثير من الشعراء والأدباء.

الشعر من أقدم آليات التعبير الفنی وأقواها التفاتا إلى الطبيعة، واهتماما بتصوير ظاهرها وسحرها وروعتها. كما ينفعل الإنسان بالمواقف المتعلقة بحياة الفرد أو الجماعة كذلک تجذبه الظواهر الطبيعية، تثير فی نفسه مشاعر شتی. النيل هو أساس لهذه الطبيعة، فهو سفر وطنی مقدس تقرأ فی صفاته عقول الناشئة ماضی أجدادها التليد، وتستلهم من عمقه وسكوته ولطفه ووقاره القوة والحكمة؛ ومن ثم أخذت ألسنة الشعراء ترد منهله، وتتهافت عليه كما يتهافت الفراش على الرحيق تعبّ منه تلک المعانی السامية وتنهل من فيضه الزاخر، وتستوحی من ماضيه تاريخ أمتها المشرقة فلم يخل ديوان من دواوين أبناء النيل من ذكره، والإشارة إليه، والتغنی بفضله العميم، وخيره الدفاق(طالبی، ١٣٧٦ش: ١٢٣).

قد أثر هؤلاء الشعراء الساحة الأدبية وغامته الشعرية بروائع لاتحصی ولايسع المجال للوقوف عندها جمعاء، ولا للوقوف عند الشعراء أجمعين. بل ونكتفی بلمحة عابرة من قصائد *عبدالله الطيب المجذوب* فی ديوانه «أصداء النيل».

النيل لغة

قيل أنه كان معروفا باسم «حابی»(إله النهر) وربما كان اليونانيون هم أول من استخدم اسم نيلوس Neilos كما قيل إن النيل مأخوذ من اللغة الفارسية، وهی «نيل» أی الأزرق وهناک رأی آخر وهو اسم النيل منحدر من لفظ "أيال" القبطی بعد إضافة المقطع "نی" كأداة تعريف للجمع فی اللغة القبطية وقد أضاف اليونانيون إليها المقطع (OS) لتصبح نيالوس، ثم حذفت بعد ذلک فی استخدام الوس. وما من شک أن هذا الرأی الأخير هو الأقرب إلى الصواب(الشامی، ١٩١٧م: ١٧).

یقول *ابن منظور* فی «لسان العرب» إن *الأصمعی* قال: «نالة الحرم ساحتها وباحتها النیل نهر مصر حماها الله وصانها» وفی الصحاح «فیض مصر، ونیل نهر بالکوفة» وحکی *الأزهری* و قال: «رأیت فی سواد الکوفة قریة یقال لها النیل...»(ابن منظور، ج۱۴: مادة نیل) أما *الزبیدی* فیقول فی «تاج العروس»:

فقد رمیت بداء لستَ غاسله ما جاوز النِّیل یوماً أهل أبلیلا

قریة بالکوفة، قال *النعمان بن المنذر* یجیب *الربیع بن زیاد العبسی*: «والنیل قریة ب«یزد» علی مرحلتین منها: النیل نبات «العظلم» وأیضاً نبات آخر ذو ساق صلب وورق صغار؛ أما النیل بالکسر فهو السحاب(الزبیدی، ۱۳۰۶ق، ج۸: مادة نیل).

حیاة الشاعر

ولد فی السودان غربی «الدامر» فی سنة ۱۹۲۱م، تعلم بمدرسة کسلا و الدامر و بربر وکلیة غوردن بالخرطوم، والمدارس العلیا ومعهد التربیة ببخت الرضا وجامعة لندن بکلیة التربیة، ومعهد الدراسات الشرقیة والإفریقیة، نال الدکتوراه من جامعة لندنSOAS سنة ۱۹۵۰م، عمل بالتدریس بأم الدُرمان الأهلیة وکلیة غوردن وبخت الرضا وکلیة الخرطوم الجامعیة وجامعة الخرطوم وغیرها من الجامعات.

تولی عمادة کلیة الآداب بجامعة الخرطوم(۱۹۶۱-۱۹۷۴م) کان مدیراً لجامعة الخرطوم وأول مدیر بجامعة جوبا، عمل أستاذا للعربیة بالمغرب فی کلیة الآداب بجامعة محمد بن *عبدالله بفاس*. له عدة مؤلفات منها «المرشد إلی فهم أشعار العرب وصناعتها» و «الأحاجی السودانیة» و«نافذ القطار» و... له عدة دواوین شعریة مثل«أصداء النیل» و«زواج السمر» و«أغانی الأصیل» و«یانات رامة».

عضو عامل بمجمع اللغة العربیة بالقاهرة منذ ۱۹۶۱م، وعین رئیسا لمجمع اللغة العربیة بجمهوریة السودان فی ۱۹۹۰م وفی بدء تأسیسه، منح الدکتوراه الفخری فی اللغة العربیة من جامعة الخرطوم وجامعة بایبر وبکنو بنیجریا ومن جامعة الجزیرة بالسودان. شارک فی عدة مؤتمرات فی السودان وخارجها وله مساهمة فی الصحافة والإذاعة والتلفزیون. فسر القرآن کله من إذاعة أُم دُرمان ونشر تفسیر جزء عم وتفسیر جزء تبارک(الطیب، ۱۹۹۱، ج۳: ۱۸۴).

أصداء النّيل والنّيل

يحتوى ديوان *عبدالله الطيب* «أصداء النيل» على ١٦٠ قصيدة ومقطوعة وهزجا ومسمطا وقصة، وتدور موضوعاتها حول شعر الحب والجمال والوصف والمدح والرثاء والموضوعات القومية وفى ديوانه قصائد نظمها فى الطبيعة وحبه لمظاهر الطبيعة، يبدو بكل وضوح وكانت الطبيعة فى شعره مجالاً لتأملاته الشعرية.

يتجلى حب *عبدالله الطيب* لمظاهر الطبيعة فى مادة الخيال التى يعبر بها عن خلجات نفسه ومعانيه. فهو كثيراً ما يتخذ من الأزهار والأنهار والغابات والصحارى والألحان والأنوار وغير ذلک من محاسن الطبيعة مادة لخياله. فعشق النيل لأنه صوت السودان، فيلوذ الشاعر بالنيل، ذلک النيل الذى كم عشقه، وتدله فى حبه فيلتجئ إليه، ويكشف ويكثر من ترديد هذه الكلمة النيل فى شعره.

كما سمى تسعاً من قصائده ومقطوعاته فى «أصداء النّيل» بهذه العناوين: ذكرى النيل، ماء النيل، حبذا النيل، النيل، أوز النيل، إلى النيل، حنين إلى النيل، روض النيل، صورة أخرى لروض النيل .كما يتكلم عن النيل فى القصائد التالية: الصابر، الربيع، الشتاء، زنجية جنوبية، ألا حبذا نهر، رنا قلبى، إنجيلک شعر الثورة المصرية، ذكرى، رسم الحادثات، ندم الشباب، البدر فى مانشستر، السدود، المركب النهرى، النيم، بخت الرضا، النخلة، يا سدرة بالتل، سفر الصداقة، خواطر مفيدة، أمس زرنا أم الدجاج، الدب والدولار، بدامر الصدق، الربع المحيل، إلى الخرطوم، شكوى وعزاء، يا جارة البين غربة وذكرى، الوطن الضائع، وداع الخرطوم، هموم وفلسطين، ذكرى حافظ، صخر أسوان.

حبّ النّيل

إن التعبير عن حب النيل والتعلق به قد يتخذ أسلوب الصراحة والوضوح بالتعبير المباشر بلفظ الحب، وذلک تأكيد معنى المحبة، وغرسه فى النفوس، والفخر بترديده، والاعتزاز بالتغنى به؛ ولذلک نجد الشعراء يرددونه ويكررونه فى أكثر من موضع «أحب النيل ذا التيار... »، «أحب النيل زمجر...»، «أحب النيل حين صفا...»، «يا حبَّذا النيل إذ رف الأصيل...»، «يا حبَّذا النيل أنى كان منسربا...»، «وحبَّذا وقفة النيل...»، «وحبَّذا شطآه والنخيل...».

والمتصفح لأصداء النیل، یری فی النظرة الأولی مدی تعلق *عبدالله الطیب* وحبه بالنیل؛ وفی رأیی إن الشعر جدیر بالنظر والتقدیر فی دیوانه إنما یتجه إلی التغنی بنغمات الحب فی مظاهره المختلفة خاصاً فی الطبیعة .تطور حب *عبدالله الطیب* من حب ضیق إلی حب أفسح، وکان یحب صوراً أخری من الجمال ووصف النیل وأعجب به عندما أنشد قصیدته «إلی الخرطوم» ومطلعها هی:

إلی الخُرطُوم من بعد إغتِرَابِ وبعد بِلَی الشَهِی من الشباب

(الطیب، ۱۹۹۲: ۱۹۹)

فالنیل دار له هیبة النسک ووقاره، تجد النفس عندها المتعة الروحیة وتسبح فی جماله وحسنه، تعشقه وتحبه فیقول الشاعر فی القصیدة نفسها:

أحِبّ النیلَ حِینَ صَفَا وشَعَّتْ تَهاوِیلُ الأصِیلِ عَلَی الرِّوَابِی

هُبُّ النِّیلَ به الرِیحُ الشمَالِ عَلَی شِرَاع کَسَالِفةِ الأوَزةِ ذِی انسِیاب

وَلَولاَ النیلُ والذکری وصبرِی وأنّی للْمَکاره ذو غِلاَب

أحبُّ النیلَ ذَا التّیارِ یطفُو ویلطُمُ جَانِبیهِ بِالعِبَاب

أحبُّ النیلَ زَمجَرَ ثُمَّ لَجَّت سَوَاقِیه الشَّجِیةِ فی انتحَاب

سَمِعتُ بکاءَها والعُمرُ غَضٌّ یعَللنی بآمال عِذاب

وعَزَّائی تَنَهُدُّهَا مُطیفَا بِهِ سَجعُ القمَاری الطّراب

(الطیب، ۱۹۹۲: ۲۰۰)

إنه النِّیل وقد خلبت مناظره الجذابة البهیة، لبَّ الشاعر وملکت علیه أحاسیسه وهو یتأمله وقت الأصیل، وریح الشمال تداعب موجه ودفاعه، حیثما تتهادی فوقه الزوارق الشراعیة وهو یموج کریش الأوزة نعمة وبطئاً، إنه النِّیل تحن إلیه النفوس لتجد فیه المسرة والجمال الفطری(الطیب، ۱۹۹۲: ۲۰۱).

إنها صورة شعریة تنبض بالحیاة والحرکة مفعمة بالحب الخالص للنیل الخالد، وهی غناء صداح بجماله، ذلک الجمال الذی تعشّقته النفس منذ رقة أناملها، وهی تطرب لسماع أصوات سواقیه الشجیة وصدح قماریه حیث أزفلة من الفتیات الحسناوات فی أثوابهن الغبراء قد دلفن یحتطبن من شاطئیه فی طمأنینة وأمان، یتمتعن بحسنه وجماله فهو کَم جمیل رائع عند الأصیل:

يا حَبّذَا النّيلُ إذا رَفَّ الأصيلُ وإذا مَاء السَّوَاقى عَلَى الرَّوضَات سَكَّاب
وَفتيةٌ قَد تَلَوا يسَ فِى سَحَرِ وَغَيرُهُم فِى حَشَايا اللَّيلِ مَا ثابوا

(الطيب، ١٩٩٢: ١٨٢)

فالقلب مولع بحب النيل ويتشوق للتمتع بحسنه الجذّاب وإحساس الشاعر هنا إحساس صادق تحت ظلّ الحنين والغربة، كما تثير الحب والحماس الروحى فى النفوس واصفاً فى تعابير رقيقه ومعان دقيقة حنانه واشتياقه برؤية النيل فى الصيف، فيقول فى مقطوعته إلى النيل حيث ينشد:

أُحِبُّ النيلَ فى الصَّيفِ وقَدْ زَمْجَرَ واهتاجا
ومَشْتَى لَنْدنَ الباردَ والمَوْقِدَ وهّاجا
ولَيلَ السَّمَرِ الآن لا تَرْهُبُ إحراجا
ومَسَّ الأَذْمُلِ الغى من إشراقها تاجا
وبَشَّ الزهْرُ يحكيهنَّ إذْ أقْبَلْنَ أفواجا
همى دَمْعُ امرئٌ القيس على الأطلال إذ عاجا

(الطيب، ١٩٩٢: ٩٢)

أولع *عبدالله الطيب* بالصور المشرقة فى شعره فعشق النّيل عشق النور والإشراق. يصف الشاعر النيل فى مقطوعته «ألا حبّذا النهر» إذ يصف فيها الظواهر الطبيعية التى تنبض بالحياة، ويصور لنا التصاوير الحية كلوحة قلمية رائعة، ولذلك لاينقلها نقلا محضا، بل ينقل من أحساسيسه وشعوره، ولاتدخل فى باب الغموض فى وصفه ويقف بجانب النّيل ويتغنى بسحره لكى يزيد سحراً على سحر، فيقول:

ألا حبَّذا نَهْرٌ تكاد غِياضُه لِمَا أشْرَفُتْ من جانبيهُ تَلاحُم
تَوَثَّبُ فيه كُلُّ ذاتِ مسافَةٍ من الحسن فيها أنْجُدٌ وتهائم
تراهُنَّ فيه سابحاتٍ وقد حَنَا عليهِنَّ صَدْرٌ منه رَّيانُ رائم
وهيهات منك النيلُ طامحٌ يجيشُ، به التمساحُ أسْحَمُ ساهم
وسمراء عند النيل جاذَب خطوها تكسّرُها فى مَشيها والنسائم

(الطيب، ١٩٩٢: ٥٤و٥٥)

فيقول فى مقطوعة أخرى باسم النيل حيث ينشد:

ألا یـــا حَبَّـــذا النیـــلُ ال　　خصِـیبُ العـیش مـن نهـر
وذاک السُّـــــنْبُلُ الـــــراعِ　　ش فیـــه نَفَـــسُ الفجـــر
ونَطْـــــــوِی شُـــــــقَّةَ　　مَسُـــــوقین ولا نـــــدری

یستمر *عبدالله الطیب* فی تصویر معالم تلک الحیاة الوادعـة علـی شـاطئ النیـل، ویصـور جمال طبیعته، وقد انسکبت میاه السواقی دفاقة فی الریاض الغناء، ثم یدلف لتصـویر الحیـاة الروحیة لساکنیه، فهؤلاء صبیة یتلون آی الذکر الحکیم بالأسحار، وأولئـک فارقـت جنـوبهم المضاجع فی حنایا اللیل یتجهدون، وهم یعیشون فی کنف النِّیل، ویتمتعون بجماله الأخاذ:

یا حَبّذَا النیـل أنَّـی کَـانَ مُنسَـربا　　وحَبَّـــذا ثَـــبجٌ منـــهُ وکُثبَـــان
وحَبَّـذَا شَـاطِئاهِ والنَّخِیـلُ ونیـرَانُ　　القُـــرَی ومَعِیـــزُ الحـــی والضَّـــانُ
وحبَّـذا وَقفَـة بالنیـل إذ دَلکَـت　　بَعـدَ المَقِیـل ورام الـری رُعیـان
الـوارِداتُ ضِـفافِ النیـلِ أزفِلَـةً　　یرحَضْـنَ ثُـمَّ مـا یرحَضْـنَ خُلقَـان
والنیلُ یهجِسُ فی أعمَـاقِ أنفُسِـنَا　　مُذ نَحنُ فی سَبَحاتِ المَهدِ وِلْـدَان
(الطیب، ۱۹۹۲: ۲۴۲و ۲۴۳)

فتشب النفوس وهی تحسن فی أعماقها بهذه المعانی السامیة التی تتوطد مع مـر الزمـان وترسخ فی القلوب التی تعلقت بحب النیل وتشربت منه الجلال والمهابة والاعتزاز بالذات منذ سبحات المهد .وقد أجاد الشاعر فی إبراز هذا المعنی وتصویره، فقوله هذا هـو تعبیـر یجمـع بین عاطفتی الحب والبراءة؛ فالهجس من الأعماق وبث اللواعج والهواجس هی مزیة من مزایا العشاق والمحبین الذین أضناهم الجوی، وقـرح أکبـادهم الهـوی، وناوشـتهم لـواعج الوجـد والحب. وما همسات النفس وهواجسها إلاَّ صدی لذلک، وإفصاح جهیر بمکنوناتها، وبما یعتلج فیها، فالنیل یهجس فی أعماق النفوس وهو یفـیض علیهـا تحنانـا ومحبـة کهـوی العشـاق والوالهین.

أما قوله فی "سبحات المهد والدان" فهو إفصاح عن عاطفة البراءة والعفاف الفطـری، لأن الطفولة تعنی التجرید إلاّ من الفطرة الأولی التی لم یشبها شائب ولم یدنسها دنس، فالطفولة هی رمز النقاء وصفاء السریرة، فولدان المهد براءتهم هی قـبس مـن نـور الإلـه، یشـع صـفاء وإشراقا. ولما کانت عاطفة الحب تتأرجح بین التوهج والخمود، والتوقد والـذبول، فإنَّهـا ترمـز إلی الحیاة البشریة التی لا تقف علی حال ولا تسـتقر علـی نهـج واحـد، بـل تتقلـب توهجـا

وخمودا، يسرا وعسرا، فعاطفة الحب هى رمز لها، أما براءة الطفولة، فهى رمـز الفطـرة الأولـى، تلك الفطرة السوية النقية الظاهرة. فما تتغنى به النفوس، إذا ما هو إلا صدى لهواجس النيـل فى أعماقها، وما الحنين إليه وحبّه إلا ترجمان ذاتـى لـذلک التلاقـى البعيـد منـذ سـبحات المهد(التنى، ١٩٩٨: ١١١و ١١٢).

أوّل ما يلفت النظر فى قصيدته «ذكرى النيل» حنين الشاعر للنيل، وهو بلندن فيقول:

بلندن ما لى من أنـيسٍ ولا مـال ... وبالنيـل أمسَـى عـاذرِى وعُـذّالى
ذكرتُ التقاءَ الأرزَقَـينِ كمـا دنـا ... أخو غَزَلٍ من خذرِ عَـذرَاءَ مكسـال
ينَازِعُهـا كيمـا تَجُـودَ وَينْثَنـى ... وقَـد كَـادَ، مَحبُـوراً مُـؤانِسَ آمـال
إذا الأبـيضُ الرَّخَّـارُ هـاج عُبَابـه ... له زَجَلٌ من بـين جـال إلـى جـال
ترافقـه مـن فوقـه قَـزَعُ الطَّخـا ... فَتَحسـبُهُنَّ الطَّيـرَ تهفـو لأوشـال

(الطيب، ١٩٩٢: ٥٠)

إنّها صرخات مغترب حرقها النوى، يحن فيها للنِّيل وقد اسودت فى مقلتيه الحياة فى ديار الغربة من ألم البين والفراق يهتف ملء فيه، يأمل الإياب والرجوع لتلک الروابى وأولئک الرفاق وذلک الحبيب. فذكر النيل مرة أخرى فى مقطوعته «ماء النيل» فينشد:

يـا ليـت أنَّ النيـل عنـدى مـاؤه ... فأجعَلَـهُ وهنْـاً مـزاج مـدامى
هنـاک تَحَسَّـيتُ الصِّـبا وعقيبَـهُ ... وإن كان شاب الحَسوَ جَـرعُ سِـمَام
وآمُـل سُـؤرَ العَـيشِ ثُـمَّ وأنَـهُ ... يحَـمَّ بِـهِ إمَّـا هلكـتُ حمـامى

(الطيب، ١٩٩٢: ٥٠)

فبلاده بعيدة المنال عن يديه، ويفصل بينهما أرض وماء فلا سبيل إلى الوصال، ولكنـه لا ينفک يحن إليها ويتحرق شوقا وحبا لرؤيتها ويتمنى أن يدنو ماء النيـل منـه ليرتشـف منـه رشفات، علها تهدئ من شدة وجده لدياره ووطنه فإن الأيام سوف تسـعد بعودتـه، وتهنـأ لـه الحياة عند النِّيل، بين حبيبه ورفاقه حينما تلامس الطمأنينة شغاف قلبه، ويحـس لحظتهـا براحة البال والضمير، فالنيل عند الشاعر أصبح محط سعادته وهنائه فهو جدير بأن يفـد، وأن تَكِنّ النفس له كل آيات المودة والاحترام.

یحن لبلاده ویتشوق شوقاً لماء النیل والنیل منه بعید، وقد عظم وجده واشتد حبه لواديه، فأصبح لایلوی علی شیء إلاّ رؤیاه والرجوع إلیه، فهو رجوع الذات إلی طینتها الأولی، التی تعلمت منها الحیاة والسعادة فینشد:

شَوقاً إلي النیل ذِی البَشَاشَةِ کَم ... سَعِدتُ فِی رِیفِه ومُدْنِهِ
وکَم تَحَسَیتُ مِن سُلافَتِه ... مکرم العَرضِ غَیر مُمتَهنه
لولا المقادیرُ کانِ أحرَزنی ... ما لاینَال العُدَاةُ فی أمنِه
ولم أقَض الأیام مُدْجَنَةً ... فی بَلَدٍ قَد سَئِمتُ من دجنه

(الطیب، ۱۹۹۲: ۲۱۳)

فالنیل هو کنانة الصبابات والأشواق التی قد کتمها الشاعر المحب عن الناس وحجبها عنهم، إلا ما اعتراه من آهات وحزن، وتباریح الهوی، وتلک الشکوی التی یبثها فی اللیل الدجوج للرجوج إلی الرحمن بأبیات شعر حرار، تعبیراً عن حرارة الأشواق واللواعج. فالنیل وحده هو الذی تجد النفس عنده العزاء والسلو.

ولَیسَ مَسِیری فِی البِلادِ بِمُبعِدِی ... عَن النِّیلِ إنَّ النِّیلَ فِیه دِیاری
وفِیه الصَّبَاباتُ الّتی کَتَمْتُهَا ... عَنَ النَّاسِ إلا آهَتِی وجُوُاری
وشَکوَای لِلرّحمَن فِی حَلَک الدُّجَی ... بأبیاتِ شِعرِ یعتَلِجنَ حَرَار

(الطیب، لا تا، ۹۹)

فهو عزاء للنفس منذ ریعان نشأتها الأولی وقد أحبته منذ طفولتها الباکرة، فهو سلواها وملاذها إن تکالب علیها الیأس، وتنازعتها النوازع.

عَزَاء النَّفسِ أنتَ إذا تَغَشی ... رُبَا الأمَالِ یأسٌ کالضَّبَاب
حَبَیتُکَ إذ نَبَاتُ العُمرِ غَصٌّ ... ووَردُ الحُبِّ أحمر کالشِهاب

(نفس المصدر: ۱۰۵)

کان النیل رمزا من رموز الشوق والحنین، إذ فیه الدار والمأوی والمنزل والمربع، وفیه ذکریات حبیبة إلی النفس ترجع صدی أیام سعد، تهیج الوجدان وتؤجج العواطف فتحن إلی تلک الدیار وتلک الأیام الخوالی. ولما کان «أول رموز الشوق والحنین هو المأوی، والدار والمنزل أوضح ما یدل علی المأوی، ثم المرأة فرع من هذا المعنی إذ هی کانت المأوی الأول حین کانت أما، ثم هی المأوی الثانی حین تکون الخدن والزوجة والخلة والصاحبة، والعرب

تكنى بالبيت عن المرأة»(الطيب، ١٩٩١، ج٣: ١٤١). فالنيل هو أيضا رمز من رموز الشوق والحنين ففيه المنزل والدار. فينشد فى مقطوعته «حَبّذا النيل»:

حبَّذا النيل مَنزلاً ونخيلُ ... النَّيلِ والليلُ مُقمرا والنُّجوم
ورِمالٌ كأنَّهُنَّ إضِى ... دارجٌ موهناً بِهنَّ النَّسيم
ورباعٌ يشَادُ فيهن بالذكـ ... ـر وتتلى يس أوحمُ
وقبورٌ ثَوينَ فى ذلک القَفـ ... ـر سقتهنَّ بالذِّهاب الغيوم
فَرَّق الدَّهر بينهُنَّ وعزَّى ... نَفسَه بعد عهدهنَّ اليتيم

(الطيب، ١٩٩٢: ٧٤)

إنّ الاغتراب عن الوطن، والبعد عن الأهل والديار وذوى القربى، وفراق الأحبة، يؤجج العواطف ويلهب الشعور المغتربة الذى طوَّحت به أيدى النوى، وهو يحس بالوحدة، وألم الفراق وعذابات البين، فلا يجد بدا من اللجوء إلى ذكرياته السالفة، يجد فيها الأنس والترويح ويلتمس عندها الطمأنينة والسلوى وهو يقاسى آلام الغربة وجراحاتها فيقول فى قصيدته، روض النيل:

أشاقَ قَلبَکَ رَوضُ النَّيل ترمقه ... ودُونَ ذلک آماد بعيدات
بَحرٌ خِضَمّ تضِلُّ السارياتُ به ... وَرَءَاهُ مصر والبيد التنوفات
أو تَركَبُ اللُّوحُ تمطو ذات أجنحة ... بک الفضاءَ لها بالجو أزَّات
ألا ترى الكَوْنَ قد أبدى مفاتِنَه ... وَرَفَّ الرَّوض آفاق نضيرات
ترى الرُّبا لاح إبريزُ الشعاع بها ... ودُونهـا وَهَداتٌ مدلهمات
والغانياتُ بأثوابٍ تزركشها ... تزينهنَّ شُفُوفٌ عبقريات
يخفِقن كالزَّهَر البَرى فى مَرَحٍ ... أو هُنَّ فى مَوجِهِ الزاهى فراشات

(الطيب، ١٩٩٢: ١٧٩)

فدون المغترب ووطنه بحار عراض تتيه فيها السفن، وصحارى شاسعات، فأنّى يتسنى له رؤية النيل ورياضة الغناء، وقد أرقه الحنين إلى الوطن والأهل .فذكرى الوطن والحنين إليه، قد ملكت من المغترب فؤاده واستحوذت على قلبه وجنانه، وهو يتمنى أن يرَ الوطن ويلثم ثراه، كناية عن شدة الشوق لوطنه الذى تفصل بينه وبين المغترب الفجاج والبحار. فيقول فى قصيدته حنين إلى النيل:

أیـا طـاب وِردُ النیـل إذ هـاج هـادِراً وجَـاشَ علـی الآفـاقِ بـاللُّجَجِ الحمـر
علـی شـاطِئیهِ النَّخـلُ والَّیـلُ شـاملٌ ومـن فَوقِـهِ الخضَـراءُ تُزهـر بالبـدر
یـــذکِّرُنی قُمریـــهُ مُتَرَنِّمـــاً بُلَیبـلُ روضٍ صـادحٌ غلـس الفَجـر
تَـرَنَّمَ حتـی رَنَّ فـی القلـب لَحْنُـهُ وحتی دموعُ الصب من طَـرَبٍ تجـری
وخَیـل للعَینَـینِ سُـجَّعُ ضـالَةِ تَجَمَّعـنَ مـن وُرقٍ علیهـا ومـن کُـدر
وهیهـات منـی بـالجَرِیرَةِ نُـوَّح علی الطَّلـحَ یمـلأنَ المسـامع بالشـعر
فیـا لَیـتَ أنَّ النیـلَ یـدنُو فمـاؤهُ أحَـبُّ إلینَـا مـن مُعَتَّقـةٍ بِکـر
ومـن کَاعِـبٍ حَسـناءَ لَـذٍّ حـدیثُها تَفَـاوَحُ مـن أثوابهـا بَنَّـةُ العِطـر
فمـن مُبلِـغٌ قـومی السـلامَ تَحِیـةً فَقَلبِـی لا ینفَـکُّ مِـنهم علـی ذُکـر

(الطیب، ۱۹۹۲: ۱۷۷و ۱۷۸)

فماء النیل أحب إلی نفسه، وأطیب من کـل اللذائـذ والمغریـات التـی وجـدها فـی دیـار المهجر، وذلک لأن شوقه لوادی النیل لایبلی وحبه باق فی الأعماق، وحنینه لقومه وعشیرته لایبدده الزمان، ولاینقصه الدهر فهو حب خالد، فالحنین إلی النیل والتشوق إلیه، هو وفاء لـه وبر لما أسداه للأهل والعشیرة من نفع وعیش رغد، فالقلوب تکنّ لـه الـولاء والإخـلاص رغـم البعد والاغتراب. فأرض النیل هی الثری والمربع الـذی شـهد الـذکریات الحالمـة وأحادیـث الشوق الفائتة والتی تولع النفس بترددیها وحکایتها لتجد فیها العزاء والسـلوی، ولتجـد فـی روایتها تنفیسا لهواجس النفوس ولوعتها.

فللشاعر عند ضفاف النیل ذکریات هوی، وصـبابات حـب قـد شـهدها النیـل فـی سـالف الزمان، أیام کان الشاعر یتدله فی حب لمیس التی کانت تمید مهفهفة الأطراف بین دوحات النیل فهو یحن لتلک الأیام التی تعیش ذکراها فی النفس حیة جیاشة، وإن بعـد عـن النیـل وعن دیاره، فإنّ الذکریات باقیة فی النفوس التی لم تسعد بذلک الفراق للنیل والحبیب والقوم الکرام. الحنین إلی النیل وذکریاته العطرة هو حنین لذکریات الهوی والغرام والمحبین، ولولا عزم الشاعر علی اجتیاز المحن والتغلب علی الصـعاب، وإیمانـه باسـداء الجمیـل إلـی قومـه وعشیرته لهاجر من الدیار بعدما ساد فیها الذل والهوان والخصومات ولکن تعلقه بکل ما ذکره شوقه وحنینه إلیه یقعد به عن مفارقة الدیار وهجر أرض النیل وهو الذی تشتاق إلیه النفوس فیقول فی قصیدته غربة وذکری:

شَوقًا إلى النَّيلِ ذِى البَشَاشَة كَـم سَــعِدتُ فــى رِيفــه ومُدُنِــه
وكَــم تَحَسُّــيتُ مِــن سُــلافَتِه مكــرم العَــرشِ غَيــر مُمتَهِنــه
(الطيب، ١٩٩٢: ٢١٣)

فالشوق إلى النيل والحنين إليه، شوق إلى المكارم والعلى، وتطلع للشرف والرفعة، وأرضه هى مربع أحاديث الهيام والليالى الملاحة. فالنيل هو الذى شهد أقاصيص الهوى، وأحاديث الغرام وعناق المحبين وتمازج أرواحهم فى مودة وصفاء. فالنفس تحن إليه وتطرب لذكراه، فكم هى واجدة عند المسرة ومحبة الآخرين.

فالنيل هو أرض الجدود والأهل والقوم الكرام فأرض النيل، هى دار العشيرة ووطن الآباء والقوم الطيبين والذين ضمّهم ترابه منذ أمد بعيد، قبل أيام الفونج، بل قبل أيام حروب العرب بذى قار فى أيام الجاهلية، فحمى النيل هو حمى شعب السودان، وفى قول شاعرنا دلالة على الرباط الوثيق بين النيل وشعبه، فهو استلهم من تاريخه النضر كل معانى. الرفعة والسمو فيقول فى مقطوعته زنجية:

وجاريــةٍ مــا ثَوْبهــا غَيــرُ يــارِقٍ وحَقو من الأغْصَانِ والـورقِ الخُضـر
لها لَونُ كُحلى الحريرِ وقَدْ طَفَـتْ من الآبَنُوسِ موجتَان علـى الصَّـدر
فَغُضَّ سَوَامَ الطَّـرفِ وأعْلَـمْ بأنَّهـا عليهـا ثيـابٌ مـن طبيعتهـا البِكـرِ
هى ابنةُ غابِ النيل كَوثرِكَ الذى سَقَى الحِقَبَ الماضِينَ تجرِبَة الدَّهر
(الطيب، ١٩٩٢: ٥١)

فهو تاريخ حى يجرى بين الناس، يستشف منه الماضى وعبره وتجاربه وهو الذى يضم أرواح الجدود بين شطيه وهم ذوو عقيدة حنيفة، وسرائر طاهرة كريمة، تشربت كتاب الله فكان حاديهم ودليلهم إلى العلياء، ورفض الظلم والاستعباد، فكان سبيلهم هو سبيل العزة والسؤدد فما النيل إلاّ كتاب، نقرأ فى صفحاته ذلك الماضى الناصع، وننعم على شطيه وبين جروفه بالأمن والغبطة.

فالنِّيل رمز الخلود والديمومة وهو سر الوجود والحياة بما يحمله فى جوفه واستعمال الشاعر لكلمة "الماء" لعلها اقتباس من قوله تعالى: ﴿وجَعَلنا مِن الماء كل شَىء حى﴾(الأنبياء/ ٣٠)؛ فالماء هو عصب الحياة وعمادها وسر كنهها، فهو الذى يهب الإنسان

الوجود، ولكن الإنسان يفنى والنيل يبقى خالدا أبد الدهر. وما حياة الإنسان إلا كالسراب الذى يزول ويفنى والنيل باق فى خلوده وديمومته، فيقول:

ينساب ماؤک ويزخر عبابک
يا نِيلُ كَم تَنسَاب
ويزخَرُ العِبَاب
المَاءُ أنتَ إنَّنا سَرَاب

(الطيب، ۱۹۹۲: ۱۱۲)

فالنيل هو كوثر الدنيا، بل هو الكوثر المجسد على الثرى بين شطآنه جنات ونعيم، وماؤه يسكر من فرط لذته، فالشاعر عندما يقف على شاطئ النيل، إنَما يقف أمام كوثر ذى سحر خلاب، يلهم المتأمل فيه المعانى المتدفقة، والبيان الرصين، وتسلب لذة مائه عقل كل من ذاقها فهى شهد الكوثر: فماؤه سلسبيل عذب، هو أصل الحياة، ما يفتأ يجود به النيل على أهله، وذويه، فتنقلب حياتهم نعيماً وعشياً كريماً:

أو كَوثَرُ النِّيلِ سَقَى ما سَقَى فَأصلَحَ الكَونَ بِما أصلَحا

(الطيب، ۱۹۹۲: ۱۲۹)

فالنِّيل حياة وعطاء ونماء وإصلاح. النيل المفدى، وهذه أيضاً من الصفات التى وصف بها النيل، وهى صفة الفداء ولا شک أن الذى يفدى لهو عزيز على النفس، يصعب عليها فراقه، ويهون عندها التضحية فى سبيله.

تَدَفَّقْ أيها النِّيلُ المُفَدّى وسَل بَين الأباطِحِ والهِضاب
عَزَاء النّفسِ أنت إذا تَغَشى رُبَى الآمال يأسٌ كالضَباب

(الطيب، ۱۹۹۲: ۲۰۱)

فهو عزيز مفدى عند النفوس التى تجد عنده الراحة والطمأنينة وهى التى تلوذ به إذا اهتاجها عارض همّ أو غمّ، تجد عنده العزاء ويبث فيها الأمل والرجاء.

نتيجة البحث

۱.الشعر من أحسن أشكال التعبير الفنى فى تصوير الطبيعة (ظاهرها، سحرها، روعتها) *فعبدالله الطيب* يتخذ من محاسن الطبيعة مادة لخياله.

۲.تطور حب الشاعر من حُبّ مادی إلی حب روحی للنِّیل وأعجب به یصور جمال طبیعته ویتمتع بجماله وجلاله ومهابته.

۳.النیل عنده رمز من رموز الشوق والحنین وهو المأوی والدار والمنزل.

۴.الحنین إلی النیل والتشوق إلیه هو وفاء له کما هو حنین إلی الحبیب واشتیاق له وهـو شوق إلی المکارم والعلی.

۵.فالنیل عنده هو کوثر الدنیا وماؤه یسکر من فرط لذته کخمر فماؤه سلسبیل عذب، وهو أصل الحیاة.

۶.یتغنی بالنیل الذی یربط بین القطرین(مصر والسودان) وینهل منه الشعبان.

۷.النیل عند *عبدالله الطیب* هو رمز للسودان ورمز للحریة واتخذه مثالا یحتذی فی وحدة الصف والتضامن عبر التاریخ والأیام.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

القرآن الکریم.

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدین محمد بن مکرم. لا تـا، **لسان العــرب**، القـاهرة: الـدار المصـریة للتـألیف والترجمة.

التنی، فتح الرحمن حسن. .۱۹۹۸م، **النیل فی الشعر السودانی**، الخرطوم: الدار السودانیة للکتب.

الزبیدی، أبوالفیض محمد بن المرتضی. . ۱۳۶۰ق، **تاج العروس من جواهر القــاموس**، القـاهرة: المطبعـة الخیریة.

الشامی، صلاح الدین.۱۹۹۷ م، **دراسات فی النیل**، القاهرة: مکتبة الأنجلو المصریة.

طالبی، محمد علی.۱۳۷۶ ش، **النیل فی شعر أبناء النیل**، مجلة زبان وأدب، العدد الثانی.

الطیب، عبدالله.۱۹۹۲ م، **أصداء النیل**، الطبعة الخامسة، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

الطیب، عبدالله. ۱۹۹۱ م، **المرشد إلی فهم أشعار العرب وصــناعتها**، المجلـد الثالـث، الطبعـة الرابعـة، الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.

الطیب، عبدالله. لا تا، **بانات رامة**، الخرطرم: الدار السودانیة.

قاسم، عون الشریف.۱۹۸۵ م، **قاموس اللهجة العامیة فی السودان**، القاهرة: المکتب المصری الحدیث.

المقالات

ممتحن، مهدی. ربیع ۱۳۸۹، «**المیاه ومفاهیمها بین القرآن والأدب الجاهلی**»، فصلیة دراسات الأدب المعاصر جامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، العدد ۶، صص ۱۶۷- ۱۷۷.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی